

بعيد ، ولكنه في النهاية لن يقع على جديد لا يتصل بمحيطه ،
ولا يرتبط بأساسه (١) .

لك الحق بمد هذا الكلام أن توجه هذا السؤال : إذا كان
الخيال لا يمكن أن يعدو الواقع الذي يدركه الحس . فما الفرق
بينه وبين الحقيقة ؟ أو ما الفرق بين أخيلة الشعراء وبين
حقائق العلماء ؟

لقد توجه ، بأدى الرأي ، هذا السؤال ، على أنك لو فكرت
وتدبرت لبان لك الفرق بينهما دون جهد في التفكير والتدبير :
فالعالم إنما يطلب الحقيقة كما هي ، سواء أكان ذلك بأخذها كما
قررها مقررورها ، أو باستظهارها ، أو باستكشافها ، أو نحو ذلك
من وسائل إصابتها والتهدي إليها . أما الخيال فانه يعمد إلى
الحقائق الواقعة فيتناولها بالتأليف والتلفيق ، ويأخذها بالتشكيل
والتلوين ، حتى تستوى له منها صورة توائم في قوتها وروعها
وتناسقها حظ مسوتها من قوة التخيل ، وجودة الصنعة ، ودقة
الدوق . والعكس في العكس .

فقد بان لك أن الصورة التخيلية مهما غلا فيها صاحبها
وأطرف ، ومهما أبدعها عما ظالمه الفكر ، فانها مشككة من
حقيقة واقعة ، أو ملققة من حقائق واقعة . ولست أصيب مثلاً
لتوضيح هذا الكلام أحسن مما أجراه أصحاب المنطق من التشييل
للممكن العقلي (المستحيل الوقوعي) بقيام جبل من الذهب ،
وتحويج بحر من الزئبق . فذلك وإن كان غير واقع بالفعل ، إلا أنه
مما يمكن إيقاعه في الذهن بالتلفيق والتشكيل : فالجبل موجود
والذهب موجود . والبحر كائن والزئبق كائن . وكل سى الخيال
في تجلية مثل هذه الصورة هو استعارة هذا المعدن لتلك الجرم ،
فيكون جيسل الذهب ، ويكون بحر الزئبق .

كذلك تستطيع أن تفرق بين الشاعر والعالم ، بأن الشاعر
في الجملة ، مُعطر ، أما العالم ، في الجملة ، فأخذ : الشاعر يبتكر
ويستحدث بقلب الحقائق ، والتلفيق بينها ، وإفراغها في غير
صورها ، وتلوينها بنير ألوانها . أما العالم فأبلغ جهده في تلق
الحقائق . فإذا كان له فيها استحداث أو ابتكار فبمجرد الانتفاع بما
(١) سبق للكتاب أن ألم بهذا المعنى إلاماً يسيراً في بعض ما كتب من الرسائل

خيال الشاعر

بين الطبع والصنعة

للأستاذ عبد العزيز البشري

لعل من الفضول أن يقول قائل : إن الشاعر يتكى أكثر
ما يتكى في فنه على الخيال . أما العالم فوجهه كله إلى الحقائق
مادية كانت أو معنوية ، ذاتية كانت أو نسية . نعم لقد يكون
هذا من فضول الكلام إذا قرر لذاته . ولكنه يرتفع عن هذا
الموضع إذا سبق لتوجيه بعض القضايا التي قد تنق على كثير أو
على قليل من الأفهام . ولعل الموضوع الذي نعالجه اليوم من
هذا الطراز .

وبعد ، فإذا كان شعر الشاعر إنما يتكى أكثر ما يتكى
على الخيال ، فاعلم أن هذا الخيال مهما غلا ، ومهما حلق وارتفع ،
ومهما استحدث وابتدع ، ومهما لوتن من الألوان وشكل من
الأشكال - فانه مُستمد في تصرفه جميعه من الحقائق الواقعة .
مبتدئ لا بد منها ، منته لا مفر في الناية إليها . فن الحقائق
الواقعة مادته ، وهي مُستعاره في كل ما سوئي وفي كل ما صور
وشكل ولون .

وذلك بأن الانسان مهما رزق من شدة العقل وأوتي من
قوة الخيال ، لا يستطيع أن يتصور شيئاً لم يقع عليه حسه .
وكيف له بهذا والحس وحده هو السبيل لاسبيل غيره إلى إدراك
الانسان ، وللى إدراك الحيوان . فدنيا الحيوان هي ما يحيط به
ويشبهه في مضطربه لا أكثر ؛ ودنيا الانسان في الواقع ، هي
ما يرى وما يسمع ، وما يدرك من الحقائق بسائر الحواس
الأخرى ، وليس يعدو العلم من طريق القراءة حاستي السمع
والبصر . بل إن هذا الانسان نفسه لو قد كُف من أول مولده
في محبس لما قدر أن دنياه شي غير ما هو فيه ، وما يتصل من
الأسباب بما هو فيه ، ولقد يمد ذهنه إلى التقصي ، ولقد يتبسط
في القياس ، ولقد يذهب في إدراك ما لم يشهد إلى قريب أو إلى

تفاوت منازل الشعر بتفاوت الشعراء في قوة التخيل ، ورهافة الحس ، ودقة الصياغة ، وبراعة الأداء .

وفي هذا المقام يجمل أن نوضح معنى لعله يحتاج عند الكثير الى التوضيح . قال المتقدمون : إن أعذب الشعر أ كذبه . وهذا كلام صحيح إذا أتجه على أن أعذب الشعر ما كان من نسج الأخيلة لا ما وقع على مجرد تقرير الحقائق الثابتة . ولكننا إذا تحولنا بالنظر الى ناحية أخرى من نواحي هذا الموضوع رأينا كذلك أن أعذب الشعر أصدقه : ولنا معنى بالصدق هنا المطابقة للواقع ، على تعريف أصحاب النطق ، وإنما يزيد به الصدق في الترجمة عن شعور الشاعر . فأعذب الشعر في الواقع هو الذي يفض عليك ما يمتلج في نفس الشاعر ، وما يمثل لحسه في إدراكه للأشياء . ولا يذهب عنك أننا نحن سواد الناس تعرض لنا الأشياء فنذكرها ، في الغالب ، كما هي ماثلة لأعياننا أو لأذهاننا . وهذا الإدراك لا يعتمد على ظاهر الصور ، أما الشاعر ، وأعني به من يستحق هذا الاسم ، فله نظرة نافذة في مطاوي كثير من الأشياء ، تسلكها دقة حسه ، وهنا يتقدم خياله السرى فيسوي منها صورة جميلة بارعة . فاذا واثته قدرة النظم ، فأداها كما أدرکها ، وجلاها كما تمثلت له ، خرجت على حظ من الاحسان والاجمال يوماً حظها من قوة الخيال ، ودقة الذوق ، وحسن الأداء .

والشعر الذي تتوافر له هذه الخلال هو الشعر الذي يروعك ، ويصقل حسك ، وقد يغمز على كبدك ، لأن الشاعر قد رفك به إلى نفسه ، فأشهدك ما لم تكن تشهد ، وكشف لك من دقائق الأشياء عما لم تكن ترى ، وبث عاطفتك خلقت في عالم الروح كل علق ، وترقرقت في سرحات الجمال كل مترقرق .

وأعود فأقول لك : إن الصورة الشعرية ، في هذه الحالة ، وإن كانت خيالاً في خيال ، إلا أنها لقوة موقعها ، ودقة صنعها تشبه عندك الصور الواقعية ؛ بل لقد تلبس عليك بالحقائق الثابتة . وكيف لا يكون لها في نفسك هذا الأثر ، وهي نفسها قد تمثلت لأدراك الشاعر واضحة سوية ، في غير تمسر ولا تعمل ، فنفضها في الشعر عليك كاتراءات لذته ، وتمثلت لحسه .

أرجو أن يكون قد صبح عندك الآن أن أعذب الشعر ، من هذه الناحية ، أصدقه لا أ كذبه

انكشف له فيها من الآثار ، وما أجلي عليه من مكنون الأسرار .

ولقد علمت أن الشاعر إنما يتكلم في فنه أكثر ما يتكلم على الخيال ، حتى لقد ذهب أكثر النقدة الى أنه ليس شعراً ذلك الكلام الذي يجري في الحقائق المجردة ، وإن كان مقفى موزوناً . ولقد عرفت أثر الخيال في تليق الحقائق وتزييفها ، وطبعها على غير صورها الواقعة . لهذا نرى الله تعالى أن يكون كتابه الحكيم شعراً ، ونرى أن يكون رسوله الكريم شاعراً : (وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ) . (وَمَا عَلَّمَاهُ الشَّمْرَ وَمَا يَدْبَعِي لَهُ ، إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ) . يردُّ جل مجده بهذا وبغيره دعوى الكفار من أن القرآن شعر ، على معنى أنه من تليق الخيال وتزييفه ، كما ردَّ دعواهم بأنه سحر ، والسحر ما يوارى حقائق الأشياء ، ويجلوها على صورت تمثل للأوهام بخداع الأسماع والأبصار : (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ) . (يَحْمِلُ الْبَدْرَ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تَسْمَى) . إنما الكتاب كله حق وصدق ومنطق صحيح (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) . (إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ) . وهذا هو الأليق بحجة الرسالة ، وآيات الله الملمعة على طريق الهدى وعلى طريق الضلالة .

ومن البديه أن الشعراء لا يطلقون أخيلتهم في فنون المعاني لمجرد البحث بقلب الأوضاع ، وسمخ الأشكال ، والتلفيق بين الحقائق . إنما الغاية كل الغاية أن تجلو عليك هذه الأخيلة صوراً طريفة بديعة لهذا الذي أدرکته من الواقع ، أو ترجم لك عما يدق عن فهمك من معانيه ومنازبه ، أو تكمل لك وتبسط بين يديك ما ترى أن الطبيعة قد قصرت فيه وانقبضت دون حبه وتسويته ، ونحو هذا مما يرهف الحس ، ويجمع النفس بمطالعة صورة من صور الجمال الفني في أي وضع من أوضاعه ، وعلى أي شكل من أشكاله .

ولاشك في أن أبداع هذه الصور وأروعها ، وأذكاها للحس ، وأجلها موقفاً من النفس ، هي أدقها حبكا ، وأحكمها سبكا ، حتى إذا طالمتها التبتت عليك بالحقيقة ، أو إنها لتكاد . وهنا

الصناعة الشعرية :

ولست أعني بالصناعة هنا إلا صناعة الخيال . فانه إذا كانت
الصناعات البدئية ، لفظية وغير لفظية ، قد أساءت إلى الشعر
العربي إساءة بالغة ، فإن الصنعة الخيالية لقد كانت في الإساءة أشد
وأبلغ . وتلك أن الشاعر أو من يتصدى لقرض الشعر ، على
العموم ، لا يشمر شبتاً ولا يتفدح إلى شيء . فيمض خياله
من مجتمه ، ويستكرهه استكرهاها على أن يصنع له صورة شعرية ،
فيمشى متمثراً هاهنا وهاهنا في الارتعاد لما عسى أن يسبح له من
المعاني واقعة حيث وقت . حتى إذا لاح له شبحها شكها ولو لم
يتبين شخصها . ثم جعل يعالجها بالترويض والتدليل ، ويضيف
إليها ما ظنّه من جنسها ، أو ما حبه مما يلابسها ، ويطلع
من هذه الأشجاء صورة شعرية (والسلام) ، صورة لا الشاعر
أحسها من أول الأمر أو تذوقها ، ولا من يقرؤه شعر بالألف
لها ، أو ذكا حه بها .

وهذا الخيال المصنوع التعمّل المجهود به ليس من الشعر
في كثير ، وهذا على أرقن تعبير . بل إنه لأشبه بصنعة النجار
أو الحداد في بائط المصنوعات . بل إنه كثيراً ما تخرج الصورة
الشعرية ملتوية شائبة ، تخفى معارف وجهها على ناظرها فكيف
بقارئه ؟ وعلى عيني أن أقول إن شيئاً من هذا يقع في بعض ما
نقرؤه من شعر هذه الأيام ! .

ودعنا من الحديث الآن حتى نقرغ من شأن القديم . وخبرني
بينك أي شيء هذا الذي ساقه علماء البلاغة شاهداً على حسن
التليل ! .

لو لم تكن نية الجوزاء خيسته

لأ رأيت عليها عقيد متطق

وقول الآخر في هذا الباب أيضاً .

لم تحك نائلك السحاب وإنما

حمت به فصيبها الرخضاء^(١)

اللهم أفكان من السائغ في العقل أو في الذوق أو في الخيال
أن نظرة الشاعر للجوزاء محيط بها دقائق النجوم لم تلهمه إلا أنها
إنما تمتطقت لتقوم على خدمة ممدوحه ؟

(١) يقال رخص المحوم : أخذته رخصاً الحسى ، وهي مرقها .

وهل كان من السائغ أن نظرة ثاني الشاعرين في السحاب
وهي تهسى ، لم تشعره إلا أنها غارت من كرم ممدوحه لتصورها
عن مجازاته ، فأخذتها الحى ، فلم يكن ماتسح به إلا من عرقها !
اللهم أشهد إن هذا وهذا كلام بارد مليح ، وهذا وهذا من
الخيال الفسّل السخيف ! .

وبعد ، فهذه فسولة الكلام وسخفه إننا ترجع في قرض الشعر
في الجملة ، إلى أحد شيئين : إما لأن الناظم لا طبع له ولا شاعرية
فيه ، فهو يتصيد الخيال تصيداً ويصنعه صنفاً ، ليحى بنحو ما يهوى .
به الشعراء ، وإما للرغبة في شدة المبالغة ، والابقاء على الغاية من
المدح ونحوه ، فيسف الشاعر ويسخف ، ويأتي بمثل هذا الهديان
الذى أتى به ذاك الشاعران . إلى أن طبيعة هذه الموضوعات ليس
فيها مجال عريض لشعور صحيح ، ولا لخيال واضح صريح : والمدح
له الذى عنى على كثير من هذا الأدب في العصر الذى نميش فيه

وانظر ، بعد هذا ، كيف يقول زهير بن أبى سلمى في مدح
هرم بن سنان ووصف كرمه ، وكيف ، على أنه غيلا في ذلك
أشد الغلو ، أتى لهذا الكرم بصورة قوية مسبوكة سائفة .

قد أحدث البستون الخير من هرم

والسالكون إلى أبوابه طرفاً

من بلى يوماً على علاته هرماً

بلى الساحة منه والندى خلقاً

وذلك لأن ممدوحه كان جواداً حقاً ، وأنه هو تأثر بشدة
جوده حقاً ، وهو إلى هذا شاعر فحل ، خصب الذهن سرى
الخيال ، فلم يتمم ولم يتمم ، بل لقد انتضح شعره بالصورة التى
وجدت بها شاعريته فجاءت ، على إيمانها في الغلو ، سائفة مسبوكة
لا نشوز فيها على الأذواق . وهذا هو الفرق بين الخيال المطبوع ،
وبين الخيال المصنوع .

ولقد عرض ذكر الذوق في بعض هذا الحديث . وللذوق
محل غير المنكور في الشعر وفي غير الشعر . ولقد كان ينبغي أن
نفصل القول فيه بعض التفصيل لولا أن طال بنا الكلام .
فلترجىء هذا إلى مقال آخر

عبد العزيز البشري